

عِنْدَمَا يَحْفَرُ بُيُوتَهُ فِي جُدُوعِ أَشْجَارِ الْغَابَةِ. وَتُخَبِّئُهُ وَتُخْتَبِئُ مَعَهُ فِي الْكُهُوفِ! فِي لَحْظَتِهَا، فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ وَادِيهِمْ، إِلَى جَانِبِ نَبَاتَاتٍ كَثِيرَةٍ أُخْرَى يَفْتَاتُونَ بِهَا، لَا أَحَدَ فِي الْقَرْيَةِ يَعْرِفُ بِدِقَّةِ التَّارِيخِ الَّذِي حُفِرَتْ فِيهِ الْكُهُوفُ وَتُحْتَتِ، وَالْأَدَوَاتِ الْحَجَرِيَّةَ الَّتِي لَا يَزَالُ بَعْضُهَا فِي مَتَاهَاتِهَا، وَعَلَى مَدَارِ الزَّمَنِ، ظَلَّتْ هَذِهِ الْكُهُوفُ مَلَاذًا آمِنًا لِلْأَهَالِي مِنْ أخطَارِ فَيْضَانِ النَّهْرِ، اجْتَمَعَتِ الْقَرْيَةُ بِصِغَارِهَا وَكِبَارِهَا دَاخِلَ أَكْبَرِ الْكُهُوفِ، بَعْدَ أَنْ أَخْفَوْا مُحَاصِلَهُمْ فِي كُهُوفٍ مُجَاوِرَةٍ. وَبِخَاصَّةِ الْأَطْفَالِ. فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، حَجَبَ الرُّؤْيَا لِثَوَانٍ وَاشْتَدَّ سَطْوَعُهُ بِشَكْلِ مُتَزَامٍ مَعَ ذَاكَ الصَّوْتِ الْمُخِيفِ لِلْعَاصِيفَةِ. خَفَّتْ بَعْدَهَا شِدَّةُ الضَّوِّ وَبَهَتْ سَطْوَعُهُ، وَسَطَّ ذُهُولُ الْجَمِيعِ وَصَدَمَةُ الْجَدَّةِ الْكَبِيرَةِ... مَاذَا حَصَلَ بَعْدَهَا؟ فَلْتَنَعَرَفْ إِلَى تَفَاصِيلِ الْقِصَّةِ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ النَّصِّ: "طَوَاحِينُ الرِّيحِ وَالْعَصَا" (2). وَأَنَا عَجُوزٌ سَادَخُلُ الْعَقْدَ التَّاسِعَ مِنْ عُمْرِي". فِي هَذِهِ اللَّحْظَاتِ، انْتَفَى الْجَمِيعُ حَوْلَ الْجَدَّةِ وَ"نَاي"، مُرْتَسِمَةً عَلَى وُجُوهِهِمْ مَلَامِحَ الْحَيْرَةِ، مَا هَذَا التَّكْوِينُ؟ إِنَّهُ أَشْبَهُ بِدُولَابٍ فِي دَاخِلِهِ أَرْبَعَةُ أَجْنَحَةٍ، يَدُورُ كَمِرْوَحَةٍ طَائِرَةٍ. وَمَا هُوَ الرَّابِطُ بَيْنَ الْعَاصِيفَةِ وَالرُّسُومِ وَالْعَصَا؟ ثُمَّ هَلْ كَانَ لِقَرِينَتَنَا فِي الْمَاضِي شَكْلُ النُّفُوشِ الْمَوْجُودَةِ عَلَى الْعَصَا؟. رَبَّتَتِ الْجَدَّةُ عَلَى كَتِفِ حَفِيدِهَا، عَبَرَ التِّيَّارَاتِ الْهَوَائِيَّةِ الصَّادِرَةِ عَنْ دَوْرَانِهَا، مِمَّا سَاهَمَ فِي امْتِصَاصِ الْأَرْضِ كَمِّيَّاتٍ كَبِيرَةً مِنَ الْمِيَاهِ وَتَخْزِينِهَا فِي جَوْفِهَا. كَانَ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ يُشَبِّهُ طَقْسَ الْيَوْمِ، فَالْوَادِي بِطَبِيعَتِهِ نُقْطَةً مُنْخَفِضَةً، فَقَدْ هَجَرْنَا الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةَ مِنْ مَوْطِنِهَا الطَّبِيعِيِّ، لِذَا، وَأَمْسَكَ "نَاي" بِيَدِ جَدَّتِهِ، فَظَنَرَ كُلُّ مِنْهُمَا بِأَمْتِنَانٍ شَدِيدٍ صَوْبَ الرِّيحِ، وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ التَّمَعَّتِ الْعَصَا بِوَمُضَةٍ سَرِيعَةٍ، وَسَمِعَ الْجَمِيعُ صَفِيرَ الرِّيحِ يَمْلَأُ الْوَادِي كَأَنَّهُ أُغْنِيَةٌ عَذْبَةٌ. تَوَجَّهَ "نَاي" إِلَى الْكَهْفِ وَوَقَفَ أَمَامَ الْجِدَارِ ذِي الرُّسُومَاتِ